

باب الحمامة المطوقة

قال دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفِيلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ مَثَلَ الْمُتَحَابِّينِ كَيْفَ قَطَعَ بَيْنَهُمَا الْكَذُوبُ وَإِلَى مَاذَا صَارَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، فَحَدَّثَنِي إِنْ رَأَيْتَ عَنْ إِخْوَانِ الصِّفَاءِ كَيْفَ يَتَدَيُّ تَوَاصُلُهُمْ وَيَسْتَمِيعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، قَالَ الْفِيلَسُوفُ: إِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَغْدُلُ بِالْإِخْوَانِ شَيْئاً، فَالْإِخْوَانُ هُمُ الْأَعْوَانُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ وَالْمُؤَاسُونَ عِنْدَ مَا يَنْوِبُ^(١) مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ مَثَلُ الْحَمَامَةِ الْمُطَوَّقَةِ وَالْجُرَذِ وَالظَّنْبِيِّ وَالْغُرَابِ، قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قال بَيْدَبَا: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ سَكَاوَنْدَجِينَ عِنْدَ مَدِينَةِ ذَاهَرَ مَكَانٌ كَثِيرُ الصَّيْدِ يَنْتَابُهُ^(٢) الصَّيَّادُونَ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ شَجَرَةٌ كَثِيرَةُ الْأَغْصَانِ مُلْتَفَّةُ الْوَرَقِ فِيهَا وَكُرُ غُرَابٍ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ سَاقِطٌ فِي وَكْرِهِ إِذْ بَصُرَ بِصَيَّادٍ قَبِيحِ الْمَنْظَرِ، سَيِّءِ الْخَلْقِ عَلَى عَاتِقِهِ^(٣) شَبَكَةٌ وَفِي يَدِهِ عَصَا مُقْبِلًا نَحْوَ الشَّجَرَةِ فَذَعَرَ مِنْهُ الْغُرَابُ وَقَالَ: لَقَدْ سَاقَ هَذَا الرَّجُلَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ إِمَّا حَيْنِي^(٤) وَإِمَّا حَيْنٍ غَيْرِي فَلَأُثْبِتَنَّ مَكَانِي حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ، ثُمَّ إِنَّ الصَّيَّادَ نَصَبَ شَبَكَتَهُ وَنَشَرَ عَلَيْهَا الْحَبَّ وَكَمَنَ قَرِيباً مِنْهَا فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلاً حَتَّى مَرَّتْ بِهِ حَمَامَةٌ يَقَالُ لَهَا الْمُطَوَّقَةُ وَكَانَتْ سَيِّدَةَ الْحَمَامِ وَمَعَهَا حَمَامٌ كَثِيرٌ

(١) ينوب: يصيب.

(٢) ينتابه: ينزل به ويقصده.

(٣) العاتق: ما بين المنكب والعنق.

(٤) الحَيْن: الهلاك.

فَعَمِيَتْ هِيَ وصاحباتها عن الشَّرَكِ فَوَقَعْنَ فِي الْحَبِّ يَلْتَقِظُنَّ فَعَلَقْنَ فِي الشَّبَكَةِ كُلَّهُنَّ وَأَقْبَلَ الصَّيَّادُ فَرِحاً مَسْروراً، فَجَعَلَتْ كُلُّ حَمَامَةٍ تَضْطَرِبُ فِي حَبَالَتِهَا وَتَلْتَمِسُ الْخِلَاصَ لِنَفْسِهَا، قَالَتِ الْمَطْوَقَةُ: لَا تَخَازِلْنَ^(١) فِي الْمَعَالِجَةِ وَلَا تَكُنْ نَفْسُ إِحْدَاكُنَّ أَهَمَّ إِلَيْهَا مِنْ نَفْسِ صَاحِبَتِهَا، وَلَكِنْ نَتَّعَاوَنَ جَمِيعُنَا وَنَطِيرُ كَطَائِرٍ وَاحِدٍ فَيَنْجُو بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، فَجَمَعْنَ أَنْفُسَهُنَّ وَوَثَبْنَ وَثَبَةً وَاحِدَةً فَقَلَعْنَ الشَّبَكَةَ جَمِيعُهُنَّ بِتَّعَاوُنِهِنَّ وَعَلَوْنَ بِهَا فِي الْجَوِّ، وَلَمْ يَقْطَعْ الصَّيَّادُ رَجَاءَهُ مِنْهُنَّ وَظَنَّ أَنَّهُنَّ لَا يَجَاوِزْنَ^(٢) إِلَّا قَرِيباً وَيَقَعْنَ. فَقَالَ الْغُرَابُ: لَا تَتَّبِعُهُنَّ وَأَنْظُرْ مَا يَكُونُ مِنْهُنَّ فَالْتَفَتَتِ الْمَطْوَقَةُ فَرَأَتِ الصَّيَّادَ يَتَّبِعُهُنَّ فَقَالَتْ لِلْحَمَامِ: هَذَا الصَّيَّادُ مُجَدِّدٌ فِي طَلْبِكُنَّ فَإِنْ نَحْنُ أَخَذْنَا فِي الْفَضَاءِ لَمْ يَخَفَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا وَلَمْ يَزَلْ يَتَّبِعُنَا، وَإِنْ نَحْنُ تَوَجَّهْنَا إِلَى الْعُمَرَانِ خَفِيَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا وَانصَرَفَ، وَبِمَكَانٍ كَذَا جُرَدُّهُ هُوَ لِي أَخٌ فَلَوْ انْتَهَيْنَا إِلَيْهِ قَطَعَ عَنَّا هَذَا الشَّرَكُ، فَفَعَلْنَ ذَلِكَ وَأَيْسَ الصَّيَّادُ مِنْهُنَّ وَانصَرَفَ، وَتَبِعَهُنَّ الْغُرَابُ فَلَمَّا انْتَهَتْ الْحَمَامَةُ الْمَطْوَقَةُ إِلَى الْجُرَدِّ أَمَرَتْ الْحَمَامَ أَنْ يَسْقُظْنَ فَوْقَهُنَّ.

وكان للجرذ مائة جُحْرِ لِلْمَخَافِ، فَنَادَتْهُ الْمَطْوَقَةُ بِاسْمِهِ وَكَانَ اسْمُهُ زَيْرَكَ فَأَجَابَهَا الْجُرَدُّ مِنْ جُحْرِهِ: مَنْ أَنْتِ؟ قَالَتْ: أَنَا خَلِيلَتُكَ الْمَطْوَقَةُ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهَا الْجُرَدُّ يَسْعَى فَقَالَ لَهَا: مَا أَوْعَكَ فِي هَذِهِ الْوَرْطَةِ؟ قَالَتْ لَهُ: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ مُقَدَّرٌ عَلَى مَنْ تُصِيبُهُ الْمَقَادِيرُ وَهِيَ الَّتِي أَوْعَعْتَنِي فِي هَذِهِ الْوَرْطَةِ، فَقَدْ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْقَدَرِ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي وَأَعْظَمُ أَمراً. وَقَدْ تَنَكَّشْتُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إِذَا قُضِيَ ذَلِكَ عَلَيْهِمَا، ثُمَّ إِنَّ الْجُرَدَّ أَخَذَ فِي قَرْضِ الْعَقْدِ الَّذِي فِيهِ الْمَطْوَقَةُ فَقَالَتْ لَهُ الْمَطْوَقَةُ: أَبْدَأْ بِقَطْعِ عَقْدِ سَائِرِ الْحَمَامِ وَبَعْدَ ذَلِكَ أَقْبِلْ عَلَى عَقْدِي. فَأَعَادَتْ ذَلِكَ عَلَيْهِ مَراراً وَهُوَ

(١) لَا تَخَازِلْنَ: لَا تَتْرُكْنَ التَّعَاوُنَ.

(٢) لَا يَجَاوِزْنَ: يَقْطَعْنَ.

لا يَلْتَفِتْ إِلَى قَوْلِهَا، فَلَمَّا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ الْقَوْلَ وَكَرَّرَتْ قَالِ لَهَا: لَقَدْ كَرَّرْتُ الْقَوْلَ عَلَيَّ كَأَنَّكَ لَيْسَ لَكَ فِي نَفْسِكَ حَاجَةٌ وَلَا لَكَ عَلَيْهَا شَفَقَةٌ وَلَا تَزْعِينَ لَهَا حَقًّا. قَالَتْ: إِنِّي أَخَافُ إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ بَقَطْعِ عَقْدِي أَنْ تَمَلَّ وَتُكْسَلَ عَنْ قَطْعِ مَا بَقِيَ، وَعَرَفْتُ أَنَّكَ إِنْ بَدَأْتَ بِهِنَّ قَبْلِي وَكُنْتُ أَنَا الْأَخِيرَةَ لَمْ تَرْضَ وَإِنْ أَدْرَكَكَ الْفُتُورُ أَنْ أَبْقِيَ فِي الشَّرِكِ، قَالَ الْجُرْدُ: هَذَا مِمَّا يَزِيدُ الرِّغْبَةَ فِيكَ وَالْمُودَّةَ لَكَ، ثُمَّ إِنْ الْجُرْدُ أَخَذَ فِي قَرْضِ الشَّبَكَةِ^(١) حَتَّى فَرَّغَ مِنْهَا. فَاَنْطَلَقَتِ الْمَطْوُوقَةُ وَحَمَامُهَا مَعَهَا.

فَلَمَّا رَأَى الْغُرَابُ صُنْعَ الْجُرْدِ رَغِبَ فِي مُصَادَقَتِهِ فَجَاءَ وَنَادَاهُ بِاسْمِهِ فَأَخْرَجَ الْجُرْدُ رَأْسَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ مُصَادَقَتَكَ. قَالَ الْجُرْدُ: لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ تَوَاضُلٌ وَإِنَّمَا الْعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَلْتَمَسَ مَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَيَتْرَكَ التَّمَاسَّ مَا لَيْسَ إِلَيْهِ سَبِيلٌ، فَمَا أَنْتَ إِلَّا أَكَلٌ وَأَنَا طَعَامٌ لَكَ. قَالَ الْغُرَابُ: إِنْ أَكَلِي إِيَّاكَ وَإِنْ كُنْتُ لِي طَعَامًا مِمَّا لَا يُغْنِي عَنِي شَيْئًا، وَإِنْ مُودَّتْكَ آنَسُ لِي مِمَّا ذَكَرْتَ، وَلَسْتُ بِحَقِيقِي إِذَا جِئْتُ أَطْلُبُ مُودَّتَكَ أَنْ تَرُدَّنِي خَائِبًا، فَإِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لِي مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ مَا رَغَبَنِي فِيكَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَلْتَمَسُ إِظْهَارَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَخْفَى فَضْلُهُ وَإِنْ هُوَ أَخْفَاهُ كَالْمِسْكِ الَّذِي يُكْتَمُ ثُمَّ لَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنَ النَّشْرِ الطَّيِّبِ وَالْأَرَجِ الْفَائِحِ^(٢). ثُمَّ قَالَ الْجُرْدُ: إِنَّ أَشَدَّ الْعَدَاوَةِ عَدَاوَةُ الْجَوْهَرِ وَهِيَ عَدَاوَتَانِ مِنْهَا مَا هُوَ مُتَكَافِيٌّ كَعَدَاوَةِ الْفِيلِ وَالْأَسَدِ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا قَتَلَ الْأَسَدُ الْفِيلَ أَوِ الْفِيلُ الْأَسَدَ، وَمِنْهَا مَا قُوَّتُهُ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَلَى الْآخَرِ كَعَدَاوَةِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ السُّنُورِ^(٣) وَبَيْنَكَ وَبَيْنِي، فَإِنَّ الْعَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنَنَا لَيْسَتْ تَضُرُّكَ وَإِنَّمَا ضَرَرُهَا عَائِدٌ عَلَيَّ، فَإِنَّ الْمَاءَ لَوْ أُطِيلَ إِسْخَانُهُ لَمْ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنْ إِظْفَائِهِ النَّارَ إِذَا صُبَّ عَلَيْهِ.

(١) قرض: قطع.

(٢) النشر: الرائحة الطيبة، والأرج: توهج ريح الطيب.

(٣) السنور: القط.

وإنما مُصاحِبُ العَدُوِّ ومُصَالِحُهُ كصاحبِ الحيّةِ يَحْمِلُهَا فِي كُمِّهِ،
وَالْعَاقِلُ لَا يَسْتَأْنِسُ إِلَى العَدُوِّ الْأَرِيبِ^(١). قَالَ الْغَرَابُ: قَدْ فَهِمْتُ مَا تَقُولُ
وَأَنْتَ خَلِيقُ^(٢) أَنْ تَأْخُذَ بِفَضْلِ خَلِيقَتِكَ^(٣) وَتَعْرِفَ صِدْقَ مَقَالِي وَلَا تُصَعِّبَ
عَلَيَّ الْأَمْرَ بِقَوْلِكَ لَيْسَ إِلَى التَّوَاصُلِ بَيْنَنَا سَبِيلٌ، فَإِنَّ الْعُقَلَاءَ الْكَرَامَ لَا
يَبْتَغُونَ عَلَى مَعْرُوفٍ جَزَاءً، وَالْمَوَدَّةُ بَيْنَ الصَّالِحِينَ سَرِيعٌ اتِّصَالُهَا بِطِيءٍ
انْقِطَاعُهَا، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ الْكُوزِ مِنَ الذَّهَبِ، بِطِيءٍ الْانْكِسَارِ سَرِيعُ الْإِعَادَةِ،
هَيْنُ الْإِصْلَاحِ، إِنْ أَصَابَهُ ثَلَمٌ أَوْ كَسْرٌ، وَالْمَوَدَّةُ بَيْنَ الْأَشْرَارِ سَرِيعُ انْقِطَاعُهَا
بِطِيءٍ اتِّصَالُهَا، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ الْكُوزِ مِنَ الْفَخَّارِ سَرِيعُ الْانْكِسَارِ يَنْكَسِرُ مِنْ
أَذْنَى شَيْءٍ وَلَا وَضَلَ لَهُ أَبَدًا، وَالكَرِيمُ يَوَدُّ الْكَرِيمَ وَاللَّئِيمُ لَا يَوَدُّ أَحَدًا إِلَّا
عَنْ رَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ، وَأَنَا إِلَى وَدِّكَ وَمَعْرِوْفِكَ مُحْتَاجٌ لَأَنَّكَ كَرِيمٌ، وَأَنَا مُلَازِمٌ
لِبَابِكَ غَيْرُ ذَائِقٍ طَعَامًا حَتَّى تُؤَاخِنَنِي.

قَالَ الْجُرْدُ: قَدْ قَبِلْتُ إِخَاءَكَ فَإِنِّي لَمْ أَرُدُّ أَحَدًا عَنْ حَاجَةٍ قَطْ، وَإِنَّمَا
بَدَأْتُكَ بِمَا بَدَأْتَكَ بِهِ إِرَادَةً التَّوَقُّقِ لِنَفْسِي فَإِنْ أَنْتَ عَدَرْتَ بِي لَمْ تُقَلِّ إِنِّي
وَجَدْتُ الْجُرْدَ سَرِيعَ الْانْخِدَاعِ. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ جُحْرِهِ فَوَقَفَ عِنْدَ الْبَابِ. فَقَالَ
لَهُ الْغَرَابُ: مَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيَّ وَالِاسْتِثْنَاءِ بِي أَوْفِي نَفْسِكَ بَعْدُ مِنِّي
رَيْبَةً. قَالَ الْجُرْدُ: إِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا يَتَعَاطَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَمْرَيْنِ وَيَتَوَاصَلُونَ
عَلَيْهِمَا وَهُمَا ذَاتُ النَّفْسِ وَذَاتُ الْيَدِ، فَالْمُتَبَادِلُونَ ذَاتَ النَّفْسِ هُمُ الْأَصْفِيَاءُ
وَأَمَّا الْمُتَبَادِلُونَ ذَاتَ الْيَدِ فَهُمْ الْمُتَعَاوِنُونَ الَّذِينَ يَلْتَمِسُ بَعْضُهُمُ الْإِنْتِفَاعَ
بِبَعْضٍ، وَمَنْ كَانَ يَصْنَعُ الْمَعْرُوفَ لِبَعْضِ مَنَافِعِ الدُّنْيَا فَإِنَّمَا مِثْلُهُ فِيمَا يَبْذُلُ
وَيُعْطِي كَمِثْلِ الصَّيَادِ وَالْقَائِهِ الْحَبِّ لِلطَّيْرِ لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ نَفْعَ الطَّيْرِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ
نَفْعَ نَفْسِهِ، فَتَعَاطِي ذَاتِ النَّفْسِ أَفْضَلُ مِنْ تَعَاطِي ذَاتِ الْيَدِ، وَإِنِّي وَثَّقْتُ

(١) الأريب: الذكي.

(٢) خَلِيق: جدير.

(٣) خَلِيقَتِكَ: سَجِيَّتِكَ.

مِنْكَ بِذَاتِ نَفْسِكَ وَمَنْحَتِكَ مِنْ نَفْسِي مِثْلَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَمْنَعُنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكَ سُوءُ ظَنِّ بكَ وَلَكِنْ قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ لَكَ أَصْحَاباً جَوْهَرُهُمْ كَجَوْهَرِكَ وَلَيْسَ رَأْيُهُمْ فِيَّ كَرَأْيِكَ. قَالَ الْغَرَابُ: إِنَّ مِنْ عِلَامَةِ الصَّدِيقِ أَنْ يَكُونَ لَصَدِيقِ صَدِيقِهِ صَدِيقاً وَلَعَدُوَّ صَدِيقِهِ عَدُوّاً وَلَيْسَ لِي بِصَاحِبٍ وَلَا صَدِيقٍ مَنْ لَا يَكُونُ لَكَ مُحِبّاً، وَإِنَّهُ يَهُونُ عَلَيَّ قَطِيعُهُ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ مِنْ جَوْهَرِي. ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ خَرَجَ إِلَى الْغَرَابِ فَتَصَافَحَا وَتَصَافَيَا وَأَنَسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ حَتَّى إِذَا مَضَتْ لَهُمْ أَيَّامٌ قَالَ الْغَرَابُ لِلْجُرَذِ: إِنَّ جُحْرَكَ قَرِيبٌ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَأَخَافُ أَنْ يَزِمِيكَ بَعْضُ الصَّبِيَّانِ بِحَجَرٍ، وَلِي مَكَانٌ فِي عُزْلَةٍ وَلِي فِيهِ صَدِيقٌ مِنَ السَّلَاحِفِ وَهُوَ مُخْصَبٌ مِنَ السَّمَكِ وَنَحْنُ وَاجِدُونَ هُنَاكَ مَا نَأْكُلُ فَارِيدُ أَنْ أَنْطَلِقَ بَكَ إِلَى هُنَاكَ لِنَعِيشَ آمِنِينَ. قَالَ الْجُرَذُ: إِنَّ لِي أَخْبَاراً وَفِصْصاً سَأَقْصُصُهَا عَلَيْكَ إِذَا انْتَهَيْنَا حَيْثُ تُرِيدُ فافْعَلْ مَا تَشَاءُ، فَأَخَذَ الْغَرَابُ بِذَنْبِ الْجُرَذِ وَطَارَ بِهِ حَتَّى بَلَغَ حَيْثُ أَرَادَ فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْعَيْنِ الَّتِي فِيهَا السَّلَحْفَاءُ بَصُرَتْ السَّلَحْفَاءُ بِغَرَابٍ وَمَعَهُ جُرَذٌ فَذُعِرَتْ مِنْهُ وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُهَا، فَنَادَاهَا فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ وَسَلَّتْهُ: مَنْ أَتَيْنَ أَقْبَلْتُ؟ فَأَخْبَرَهَا بِقِصَّتِهِ حِينَ تَبَعَ الْحَمَامَ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْجُرَذِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهَا. فَلَمَّا سَمِعَتْ السَّلَحْفَاءُ شَأْنَ الْجُرَذِ عَجِبَتْ مِنْ عَقْلِهِ وَوَفَائِهِ وَرَحَبَتِ بِهِ وَقَالَتْ لَهُ: مَا سَأَلَكَ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ؟ قَالَ الْغَرَابُ لِلْجُرَذِ: أَقْصَصْ عَلَيَّ الْأَخْبَارَ الَّتِي زَعَمْتَ أَنَّكَ تُحَدِّثُنِي بِهَا فَأَخْبِرْنِي بِهَا مَعَ جَوَابٍ مَا سَأَلَتِ السَّلَحْفَاءُ فَإِنَّهَا عِنْدَكَ بِمَنْزِلَتِي. فَبَدَأَ الْجُرَذُ وَقَالَ:

«كَانَ مَنْزِلِي أَوَّلَ أَمْرِي بِمَدِينَةِ (مَارُوتَ) فِي بَيْتِ رَجُلٍ نَاسِكٍ وَكَانَ خَالِياً مِنَ الْأَهْلِ وَالْعِيَالِ، وَكَانَ يُؤْتِي فِي كُلِّ يَوْمٍ بَسَلَةً مِنَ الطَّعَامِ فَيَأْكُلُ مِنْهَا حَاجَتَهُ وَيُعَلِّقُ الْبَاقِي، وَكَنتُ أَرْصُدُ^(١) النَّاسَكَ حَتَّى يَخْرُجَ وَأَثْبُ إِلَى السَّلَّةِ فَلَا أَدْعُ

(١) أَرَصَدَ: أَرَبَ.

فيها طعاماً إلاّ أكلته وأرمني به إلى الجرذان فجهد الناسك مراراً أن يعلّق السلّة في مكانٍ لا أناله فلم يقدِر على ذلك حتى نزل به ذات ليلة ضيف فأكلاً جميعاً ثم أخذوا في الحديث فقال الناسك للضيف: من أيّ أرضٍ أقبلت وأين تريد الآن، وكان الرجل قد جاب الآفاق^(١) ورأى عجائب كثيرة فأنشأ يحدث الناسك عما وطىء من البلاد ورأى من العجائب وجعل الناسك خلال ذلك يصفق بيديه لينفّرني عن السلّة فغضب الضيف وقال: أنا أحدثك وأنت تهزأ بحديثي فما حملك على أن سألتني؟ فاعتذر إليه الناسك وقال: إنما أصفق بيدي لأنفّر جرّداً قد تحيرت في أمره ولست أضع في البيت شيئاً إلاّ وأكله. فقال الضيف: جرّد واحد يفعل ذلك أم جرذان كثيرة؟ فقال الناسك: جرذان البيت كثيرة لكنّ فيها جرّداً واحداً هو الذي غلبني فما أستطيع له حيلة. قال الضيف: لقد ذكّرتني قول الذي قال: لأمر ما باعت هذه المرأة سمسماً مقشوراً بغير مقشور. قال الناسك: وكيف كان ذلك؟

قال الضيف: نزلت مرة على رجلٍ بمكانٍ كذا فتعشينا ثم فرش لي وانقلب الرجل على فراشه مع زوجته وبينهما خُصٌّ من قصبٍ فسمعت الرجل يقول في آخر الليل لامرأته: إني أريد أن أدعو غداً رهطاً^(٢) ليأكلوا عنده فاصنعي لهم طعاماً. فقالت المرأة: كيف تدعو الناس إلى طعامك وليس في بيتك فضلٌ عن عيالك وأنت رجلٌ لا تبقي شيئاً ولا تدخره. قال الرجل: لا تندمي على شيءٍ أطعمناه وأنفقناه فإنّ الجمع والادّخار ربما كانت عاقبته كعاقبة الذئب. قالت المرأة: وكيف كان ذلك؟

قال الرجل: زعموا أنه خرج ذات يوم رجلٌ قانصٌ ومعه قوسه ونشابُه، فلم يجاوز غير بعيدٍ حتى رمى ظبيّاً فحمله ورجع طالباً منزله

(١) الآفاق: النواحي المختلفة.

(٢) الرهط: دون العشرة من الرجال.

فاعترضه خنزيرٌ بريٌّ فرماه بُشابةً نَفَذَتْ فيه فأذركه الخنزيرُ وضربه بأنْيابه
ضربةً أطارت من يديه القوسَ ووقعا ميتين، فأتى عليهم ذئبٌ فقال: هذا
الرجُلُ والطَّيْبُ والخنزيرُ يكفيني أكلهم مدَّةً، ولكن أبدأ بهذا الوترِ فأكله
فيكون قوتٌ يومي، فعالَجَ الوترَ حتى قطعَه فلما انقطع طارت سيَّةُ^(١) القوسِ
فضرَبَتْ حلقه فمات.

وإنما ضرَبْتُ لك هذا المثلَ لتعلّمي أنَّ الجَمْعَ والادِّخارَ وخيمُ
العاقبة. فقالت المرأة: نِعَمًا قُلْتُ وعندنا من الأرزِّ والسَّمْسِمِ ما يكفي ستَّةَ
نَفَرٍ أو أكثر. فأنا غادية^(٢) على صنْعِ الطَّعامِ فاذُع من أحببت، وأخذت
المرأة حينَ أَضْبَحَتْ سَمْسِمًا وقشَرته وبَسَطته في الشمسِ ليجفَّ وقالت لِغلامٍ
لهم: اطرُدْ عنه الطيرَ والكلابَ، وتفرَّغَتِ المرأةُ لِصُنْعِها وتغافلَ الغلامُ عنِ
السَّمْسِمِ فجاء كلبٌ فعاث^(٣) فيه فاستقذرتَه المرأةُ وكرِهَتْ أن تَصْنَعَ منه
طعامًا، فذهبت به إلى السُّوقِ فأخذت به مُقايضةً^(٤) سَمْسِمًا غيرَ مَقْشُورٍ مثلاً
بمثَلٍ... وأنا واقِفٌ في السُّوقِ. فقال رجلٌ لآخر: لأمرٍ ما باعت هذه
المرأةُ سَمْسِمًا مَقْشُورًا بغيرِ مَقْشُورٍ.

وكذلك قولِي في هذا الجُرَذِ الذي ذَكَرْتَ أَنَّهُ على غيرِ عِلَّةٍ ما يَقْدِرُ
على ما شَكَّوتَ منه فالتَمَسَ لي فأساً لعلِّي أحتفرُ جُحرَهُ فأطْلِعَ على بَعْضِ
شأنِهِ، فاستعارَ النَّاسِكُ من بَعْضِ جيرانِهِ فأساً فأتى بها الضَّيْفَ وأنا حينئذٍ
في جُحْرِ غيرِ جُحْرِيّ أَسْمَعُ كلامَهُما وفي جُحْرِيّ كَيْسٌ فيه مائةُ دينارٍ لا
أدري مَنْ وَضَعَهَا، فاحتفرَ الضَّيْفُ حتى انتهى إلى الدَّنانيرِ فأخذها للنَّاسِكِ:
ما كانَ هذا الجُرَذُ يَقْوَى على الوُثوبِ حيثُ كانَ يَثْبُ إلاَّ بهذه الدَّنانيرِ فإنَّ

(١) سيَّة القوس: طرفها.

(٢) غادية: مبكرة.

(٣) عاث: أضّر وأفسد.

(٤) مقايضة: مبادلة.

المالَ جَعَلَ لَهُ قُوَّةً وَزِيَادَةً فِي الرَّأْيِ وَالتَّمَكُّنِ، وَسَتَرَى بَعْدَ هَذَا أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْوُثُوبِ حَيْثُ كَانَ يَثْبُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ اجْتَمَعَتِ الْجِرْدَانُ الَّتِي كَانَتْ مَعِيَ فَقَالَتْ: قَدْ أَصَابَنَا الْجُوعُ وَأَنْتَ رَجَاؤُنَا فَاَنْطَلَقْتُ وَمَعِيَ الْجِرْدَانُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كُنْتُ أَتُبُّ مِنْهُ إِلَى السَّلَّةِ فَحَاوَلْتُ ذَلِكَ مِرَاراً فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ فَاسْتَبَانَ لِلْجِرْدَانِ نَقْصُ حَالِي فَسَمِعْتُهُنَّ يَقُلْنَ: انْصَرِفْنَ عَنْهُ وَلَا تَظْمَعْنَ فِيمَا عِنْدَهُ فَإِنَّا نَرَى لَهُ حَالاً لَا نَحْسِبُهُ إِلَّا قَدْ اخْتَجَّاجَ إِلَى مَنْ يَعُولُهُ^(١) فَتَرَكْنِي وَلَحِقْنَ بِأَعْدَائِي وَجَفَوْنِي وَأَخَذْنَ فِي غِيْبَتِي عِنْدَ مَنْ يُعَادِينِي وَيَحْسُدْنِي.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا الْإِخْوَانُ وَلَا الْأَعْوَانُ وَلَا الْأَصْدِقَاءُ إِلَّا بِالْمَالِ، وَوَجَدْتُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا قَعَدَ بِهِ الْعُدْمُ^(٢) عَمَّا يُرِيدُهُ، كَالْمَاءِ الَّذِي يَبْقَى فِي الْأَوْدِيَةِ مِنْ مَطَرِ الشَّتَاءِ لَا يَمُرُّ إِلَى نَهْرٍ وَلَا يَجْرِي إِلَى مَكَانٍ فَتَشْرِبُهُ أَرْضُهُ، وَوَجَدْتُ مَنْ لَا إِخْوَانَ لَهُ لَا أَهْلَ لَهُ، وَمَنْ لَا وَلَدَ لَهُ لَا ذَكَرَ لَهُ، وَمَنْ لَا مَالَ لَهُ لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا دُنْيَا وَلَا آخِرَةَ لَهُ لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا افْتَقَرَ قَطَعَهُ أَقَارِبُهُ وَإِخْوَانُهُ، فَإِنَّ الشَّجَرَةَ النَّابِتَةَ فِي السَّبَاخِ^(٣) الْمَأْكُولَةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَحَالِ الْفَقِيرِ الْمُحْتَاجِ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ.

وَوَجَدْتُ الْفَقْرَ رَأْسَ كُلِّ بَلَاءٍ وَجَالِباً إِلَى صَاحِبِهِ كُلِّ مَقْتٍ وَمَعْدِنِ النَّيْمَةِ، وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ إِذَا افْتَقَرَ اتَّهَمَهُ مَنْ كَانَ لَهُ مُؤْتَمِناً وَأَسَاءَ بِهِ الظَّنُّ مَنْ كَانَ يَظُنُّ بِهِ حَسَنًا، فَإِنْ أَذْنَبَ غَيْرُهُ كَانَ هُوَ لِلتُّهْمَةِ مُوَضِعًا، وَلَيْسَ مِنْ خَلَّةٍ^(٤) هِيَ لِلْغِنَى مَذْحٌ إِلَّا وَهِيَ لِلْفَقْرِ دَمٌّ، فَإِنْ كَانَ شُجَاعاً قِيلَ أَهْوَجُ وَإِنْ كَانَ جَوَاداً^(٥) سُمِّيَ مُبْذَرًّا، وَإِنْ كَانَ حَلِيمًا سُمِّيَ ضَعِيفًا، وَإِنْ كَانَ وَقُورًا سُمِّيَ بَلِيدًا، فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنَ الْحَاجَةِ الَّتِي تُحَوِّجُ صَاحِبَهَا إِلَى الْمَسْأَلَةِ وَلَا

(١) يعوله: يعيشه.

(٢) العُدْمُ: الفقر والفاقة.

(٣) السباخ مفردا سبخة. وهي الأرض ذات الملح والنز.

(٤) خلة: خصلة.

(٥) الجواد: الكريم.

سَيِّمًا مَسْأَلَةَ الْأَشْحَاءِ^(١) وَاللَّثَامَ فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ كُفِّفَ أَنْ يُدْخَلَ يَدُهُ فِي فَمِ الْأَفْعَى فَيُخْرِجَ مِنْهُ سُمًّا فَيَبْتَلِعَهُ كَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ مَسْأَلَةِ الْبَخِيلِ اللَّثِيمِ.

وَقَدْ كُنْتُ رَأَيْتُ الضَّيْفَ حِينَ أَخَذَ الدَّنَانِيرَ فَقَاسَمَهَا النَّاسِكَ فَجَعَلَ النَّاسِكَ نَصِيبَهُ فِي خَرِيطَةٍ^(٢) عِنْدَ رَأْسِهِ لَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ، فَطَمِعْتُ أَنْ أَصِيبَ مِنْهَا شَيْئًا فَأَرَدْتُ إِلَى جُحْرِي وَرَجَوْتُ أَنْ يَزِيدَ ذَلِكَ فِي قَوَّتِي وَيُرَاجِعَنِي بِسَبَبِهِ بَعْضُ أَصْدِقَائِي فَاَنْطَلَقْتُ إِلَى النَّاسِكَ وَهُوَ نَائِمٌ حَتَّى انْتَهَيْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ فَوَجَدْتُ الضَّيْفَ يَقْظَانَ وَيَدُهُ قَضِيبٌ فَضْرَبَنِي عَلَى رَأْسِي ضَرْبَةً مُوجِعَةً فَسَعَيْتُ إِلَى جُحْرِي فَلَمَّا سَكَنَ عَنِّي الْأَلَمُ، هَيَّجَنِي الْحِرْصُ وَالشَّرُّ فَخَرَجْتُ طَمَعًا كَطَمَعِي الْأَوَّلِ وَإِذَا الضَّيْفُ يَرْصُدُنِي فَضْرَبَنِي بِالْقَضِيبِ ضَرْبَةً أَسَالَتْ مِنِّي الدَّمَ فَتَقَلَّبْتُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ إِلَى جُحْرِي فَخَرَزْتُ مَغْشِيًّا عَلَيَّ فَأَصَابَنِي مِنَ الْوَجَعِ مَا بَغَّضَ إِلَيَّ الْمَالَ حَتَّى لَا أَسْمَعَ بِذِكْرِهِ إِلَّا تَدَاخَلَنِي مِنْ ذِكْرِهِ رَغْدَةٌ وَهَيْبَةٌ، ثُمَّ تَذَكَّرْتُ فَوَجَدْتُ الْبَلَاءَ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا يَسُوقُهُ الْحِرْصُ وَالشَّرُّ وَلَا يَزَالُ صَاحِبُ الدُّنْيَا فِي بَلِيَّةٍ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ، وَوَجَدْتُ تَجَشُّمَ^(٣) الْأَسْفَارِ الْبَعِيدَةِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ بَسْطِ الْيَدِ إِلَى السَّخِيِّ بِالْمَالِ، وَلَمْ أَرَ كَالرَّضَا شَيْئًا.

وَوَجَدْتُ الْعُلَمَاءَ قَدْ قَالُوا لَا عَقْلَ كَالْتَذْبِيرِ وَلَا وَرَعَ كَكَفِّ الْأَذَى وَلَا حَسَبَ^(٤) كَحُسْنِ الْخُلُقِ وَلَا غِنَى كَالرَّضَا، وَأَحَقُّ مَا صَبَّرَ الْإِنْسَانُ عَلَى الشَّيْءِ نَفْسُهُ، وَأَفْضَلُ الْبِرِّ الرَّحْمَةُ، وَرَأْسُ الْمَوَدَّةِ الْاسْتِرْسَالُ^(٥) وَرَأْسُ الْعَقْلِ

(١) الأشحاء مفردها شحيح: وهو البخيل.

(٢) الخريطة: كيس من جلد وغيره.

(٣) التجشم: تحمل المشاق.

(٤) الحَسَبُ: الشرف.

(٥) الاسترسال: أي الثقة بالصديق والاطمئنان إليه.

معرفة ما يكون مما لا يكون، وقالوا: الخرس خير من اللسان الكذوب، والضُرُّ^(١) والفقْرُ خير من النعمة والسعة من أموال الناس، فصار أمرِي إلى أن رَضِيتُ وَفَنِعْتُ وانتقلتُ من بيتِ النَّاسِكِ إلى البريّة، وكان لي صديق من الحمام فسَيِّقَتْ إِلَيَّ بِصَدَاقَتِهِ صَدَاقَةُ الْغُرَابِ والتفت إلى السَّلْحَفَاءِ فقال: ثُمَّ ذَكَرَ لِي الْغُرَابُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَوَدَّةِ وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُرِيدُ إِثْبَانَكَ فَأُحْبِبْتُ أَنْ آتِيكَ مَعَهُ وَكَرِهْتُ الْوَحْدَةَ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ مِنْ سُرُورِ الدُّنْيَا يَغْدِلُ صُحْبَةَ الْإِخْوَانِ وَلَا غَمٌّ فِيهَا يَغْدِلُ الْبُعْدَ عَنْهُمْ، وَجَرَّبْتُ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَلْتَمِسَ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ الْكَفَافِ الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ الْأَذَى عَنْ نَفْسِهِ وَهُوَ الْيَسِيرُ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ إِذَا أُعِينَ بِصِحَّةٍ وَسَعَةٍ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا وَهَبَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا لَمْ يَكُنْ يَنْتَفِعُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْقَلِيلِ الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْحَاجَةَ فَأَقْبَلْتُ مَعَ الْغُرَابِ إِلَيْكَ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ وَأَنَا لَكَ أَخٌ فَلَتَكُنْ مَنْزِلَتِي عِنْدَكَ كَذَلِكَ.

فَلَمَّا فَرَغَ الْجُرَدُ مِنْ كَلَامِهِ أَجَابَتْهُ السَّلْحَفَاءُ بِكَلَامٍ رَقِيقٍ وَقَالَتْ: قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكَ وَمَا أَحْسَنَ مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ، إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُكَ تَذَكَّرُ بَقَايَا أُمُورٍ هِيَ فِي نَفْسِكَ مِنْ حَيْثُ قَلَّةُ مَالِكَ وَسُوءُ حَالِكَ وَاعْتَزَابَكَ عَنْ مَوْطِنِكَ، فَاطْرَحَ ذَلِكَ عَنْ قَلْبِكَ وَاعْلَمْ أَنَّ حُسْنَ الْكَلَامِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِحُسْنِ الْعَمَلِ، وَأَنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي قَدْ عَلِمَ دَوَاءَ مَرَضِهِ إِنْ لَمْ يَتَدَاوَّ بِهِ لَمْ يُغْنِ عِلْمُهُ بِهِ شَيْئًا وَلَمْ يَجِدْ لِدَائِهِ رَاحَةً وَلَا خِفَّةً، فَاسْتَعْمِلْ رَأْيَكَ وَلَا تَخْزَنْ لِقَلَّةِ الْمَالِ فَإِنَّ الرَّجُلَ ذَا الْمُرُوءَةِ قَدْ يُكْرَمُ عَلَى غَيْرِ مَالٍ كَالْأَسَدِ الَّذِي يُهَابُ وَإِنْ كَانَ رَابِضًا^(٢)، وَالْغَنِيُّ الَّذِي لَا مُرُوءَةَ لَهُ يُهَانُ وَإِنْ كَانَ كَثِيرَ الْمَالِ كَالْكَلْبِ لَا يَحْفَلُ بِهِ^(٣) وَإِنْ طَوَّقَ وَخُلِجَلَ بِالذَّهَبِ، فَلَا تَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ غُرْبَتُكَ فَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا غُرْبَةَ لَهُ

(١) الضُّرُّ بالضم: الفقر.

(٢) رابضاً: أويأ في مأواه.

(٣) لا يحفل به: أي لا يبالى به.

كألسد الذي لا يَنْقَلِبُ^(١) إِلَّا مَعَهُ قُوَّتُهُ فَلتُحْسِنُ تَعَهُدَكَ لِنَفْسِكَ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ جَاءَ الْخَيْرُ يَطْلُبُكَ كَمَا يَطْلُبُ الْمَاءُ انْحِدَارُهُ، وَإِنَّمَا جُعِلَ الْفَضْلُ لِلْحَازِمِ الْبَصِيرِ، وَأَمَّا الْكَسْلَانُ الْمَتَرَدُّ فَإِنَّ الْفَضْلَ لَا يَضْحَبُهُ كَمَا أَنَّ الْمَرْأَةَ الشَّابَّةَ لَا يَطِيبُ لَهَا صُحْبَةُ الشَّيْخِ الْهَرَمِ وَقَدْ قِيلَ فِي أَشْيَاءَ لَيْسَ لَهَا ثَبَاتٌ وَلَا بَقَاءٌ: ظِلُّ الْعِمَامَةِ فِي الصَّيْفِ وَخِلَّةُ^(٢) الْأَشْرَارِ وَالْبِنَاءُ عَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ، وَالنِّبَا الْكَاذِبِ، وَالْمَالِ الْكَثِيرِ، فَالْعَاقِلُ لَا يَخْزَنُ لِقُلَّتِهِ وَلَكِنَّ مَالَهُ عَقْلُهُ وَمَا قَدَّمَ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، فَهُوَ وَاثِقٌ بِأَنَّهُ لَا يُسَلَّبُ مَا عَمِلَ وَلَا يُؤَاخَذُ بِشَيْءٍ لَمْ يَعْمَلْهُ، وَهُوَ خَلِيقٌ إِلَّا يَغْفُلَ عَنْ أَمْرِ آخِرَتِهِ فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِغَتَّةٍ لَيْسَ لَهُ وَقْتُ مَعَيْنٍ، وَأَنْتَ عَنْ مُوَعِظَتِي غَنِيٌّ بِمَا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ، وَلَكِنْ رَأَيْتُ أَنَّ أَقْضِي مِنْ حَقِّكَ فَأَنْتَ أَخُونَا وَمَا قَبَلْنَا^(٣) مَبْذُولٌ لَكَ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْغُرَابُ كَلَامَ السُّلْحَفَةِ لِلْجُرَذِ وَرَدَّهَا عَلَيْهِ وَإِلْطَافَهَا إِيَّاهُ فَرِحَ بِذَلِكَ وَقَالَ: لَقَدْ سَرَرْتَنِي وَأَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَأَنْتِ جَدِيرَةٌ أَنْ تُسَرِّيَ نَفْسَكَ بِمِثْلِ مَا سَرَرْتَنِي بِهِ، وَإِنَّ أَوْلَى أَهْلِ الدُّنْيَا بِشِدَّةِ الشُّرُورِ مَنْ لَا يَزَالُ رَبُّعُهُ^(٤) مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَصْدِقَائِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ مَعْمُورًا، وَلَا يَزَالُ عِنْدَهُ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ يَسْرُهُمْ وَيَسْرُونَهُ وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ أُمُورِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ بِالْمِرْصَادِ فَإِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا عَثَرَ لَا يَأْخُذُ بِيَدِهِ إِلَّا الْكَرَامُ كَالْفِيلِ إِذَا وَجَلَ لَا تُخْرِجُهُ إِلَّا الْفَيْلَةُ، فَبَيْنَمَا الْغُرَابُ فِي كَلَامِهِ وَالثَّلَاثَةُ مُسْتَأْنِسُونَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ إِذْ أَقْبَلَ نَحْوَهُمْ ظَبْيٌ يَسْعَى فَذَعِرَتْ مِنْهُ السُّلْحَفَةُ فَعَاصَتْ فِي الْمَاءِ وَدَخَلَ الْجُرَذُ إِلَى جُحْرِهِ وَطَارَ الْغُرَابُ فَوَقَعَ عَلَى شَجَرَةٍ، ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ حَلَّقَ فِي السَّمَاءِ لِيَنْظُرَ هَلْ لِلظَّبْيِ طَائِبٌ، فَنَظَرَ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا فَنَادَى الْجُرَذُ وَالسُّلْحَفَةُ فَخَرَجَا، فَقَالَتِ السُّلْحَفَةُ

(١) يَنْقَلِبُ: يَبْدُلُ مَكَانَهُ.

(٢) الْخِلَّةُ: الْمَصَادَقَةُ وَالْإِخَاءُ.

(٣) قَبَلْنَا: لَدَيْنَا وَعِنْدَنَا.

(٤) رَبُّعُهُ: مَسْكَنُهُ.

لِلطَّبِيِّ حِينَ رَأَتْهُ يَنْظُرُ إِلَى الْمَاءِ: أَشْرَبَ إِنْ كَانَ بَكَ عَطَشٌ وَلَا تَخَفُ فَإِنَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْكَ. فَذَنَا الطَّبِيُّ فَرَحَّ بَتْ بِهِ وَحَيْثُ وَقَالَتْ لَهُ: مَنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ بِهَذِهِ الصَّحَارَى رَاتِعاً^(١) فَلَمْ تَزَلِ الْأَسَاوِرَةُ^(٢) تَنْظُرُونِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ حَتَّى رَأَيْتُ الْيَوْمَ شَبَحاً فَخِفْتُ أَنْ يَكُونَ قَانِصاً. قَالَتْ: لَا تَخَفُ فَإِنَّا لَمْ نَرِ هَهُنَا قَانِصاً قَطُّ وَنَحْنُ نَبْذُلُ لَكَ وَدُنَا وَمَكَانَنَا، وَالْمَاءُ وَالْمَرْعَى كَثِيرٌ عِنْدَنَا فَأَرْعَبْ فِي صُحْبَتِنَا. فَأَقَامَ الطَّبِيُّ مَعَهُمْ وَكَانَ لَهُمْ عَرِيشٌ^(٣) يَجْتَمِعُونَ فِيهِ وَيَتَذَكَّرُونَ الْأَحَادِيثَ وَالْأَخْبَارَ.

فَبَيْنَمَا الْغُرَابُ وَالْجُرَذُ وَالسَّلْحَفَةُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي الْعَرِيشِ إِذْ غَابَ الطَّبِيُّ فَتَوَقَّعُوهُ^(٤) سَاعَةً فَلَمْ يَأْتْ فَلَمَّا أَبْطَأَ أَشْفَقُوا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُ عَنَتٌ^(٥) فَقَالَ الْجُرَذُ وَالسَّلْحَفَةُ لِلْغُرَابِ: هَلْ تَرَى مِمَّا يَلِينَا شَيْئاً؟ فَحَلَّقَ الْغُرَابُ فِي السَّمَاءِ فَتَنَظَرَ إِذَا الطَّبِيُّ فِي الْحَبَائِلِ مُقْتَنَصاً، فَانْقَضَ مُسْرِعاً فَأَخْبَرَهُمَا بِذَلِكَ. فَقَالَتِ السَّلْحَفَةُ وَالْغُرَابُ لِلْجُرَذِ: هَذَا أَمْرٌ لَا يُرْجَى فِيهِ غَيْرُكَ فَأَغِثْ أَخَاكَ. فَسَعَى الْجُرَذُ مُسْرِعاً فَاتَى الطَّبِيَّ. فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ وَقَعْتَ فِي هَذِهِ الْوَرُطَةِ وَأَنْتَ مِنَ الْأَكْيَاسِ^(٦). قَالَ الطَّبِيُّ: هَلْ يُغْنَى الْكَيْسُ مَعَ الْمَقَادِيرِ شَيْئاً؟.

فَبَيْنَمَا هُمَا فِي الْحَدِيثِ إِذْ وَافَتْهُمَا السَّلْحَفَةُ فَقَالَ لَهَا الطَّبِيُّ: مَا أَصَبْتَ بِمَجِئِكَ إِلَيْنَا فَإِنَّ الْقَانِصَ لَوْ أَنْتَهَى إِلَيْنَا وَقَدْ قَطَعَ الْجُرَذُ الْحَبَائِلَ سَبَقْتُهُ عَذَواً وَلِلْجُرَذِ أَجْحَارٌ كَثِيرَةٌ وَالْغُرَابُ يَطِيرُ وَأَنْتَ ثِقِيلَةٌ لَا سَعْيَ لَكَ وَلَا حَرَكَةً وَأَخَافُ عَلَيْكَ الْقَانِصَ. قَالَتْ: لَا عَيْشَ مَعَ فَرَاقِ الْأَحَبَّةِ، وَإِذَا فَارَقَ

(١) راتعاً: آكلأً وشارباً في أرضٍ واسعة.

(٢) الأساور ج أسوار بالضم والكسر: الرجل الجيد الرمي بالسهم.

(٣) العريش: ما يستظل به.

(٤) توقعوه: انتظروه.

(٥) العنت: المكروه والشدة.

(٦) الأكياس ج كيس: الفطن.

الْأَلِيفُ أَلِيفُهُ، فَقَدْ سُلِبَ فَوَادَهُ وَحُرِمَ سُرُورُهُ وَغُشِيَ عَلَى بَصَرِهِ، فَلَمْ يَنْتَهُ
 كَلَامُهَا حَتَّى وَافَى الْقَانِصُ وَوَافَقَ ذَلِكَ فَرَاغَ الْجُرَذِ مِنْ قَطْعِ الشَّرَكِ. فَجَا
 الظَّبْيُ بِنَفْسِهِ وَطَارَ الْغَرَابُ مُحَلِّقاً وَدَخَلَ الْجُرَذُ بَعْضَ الْأَجْحَارِ وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ
 السَّلْحَفَةِ وَدَنَا الصَّيَّادُ فَوَجَدَ حِبَالَتَهُ مُقَطَّعَةً فَنَظَرَ يَمِيناً وَشِمَالاً فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ
 السَّلْحَفَةِ تَدَبُّبُ فَأَخَذَهَا وَرَبَطَهَا فَلَمْ يَلْبَثِ الْغَرَابُ وَالْجُرَذُ وَالظَّبْيُ أَنْ اجْتَمَعُوا
 فَنَظَرُوا الْقَانِصَ قَدْ رَبَطَ السَّلْحَفَةَ فَاشْتَدَّ حُزْنُهُمْ وَقَالَ الْجُرَذُ: مَا أَرَانَا نَجَاوِزُ
 عَقَبَةَ^(١) مِنَ الْبَلَاءِ إِلَّا صِرْنَا فِي أَشَدِّ مِنْهَا. وَلَقَدْ صَدَقَ الَّذِي قَالَ لَا يَزَالُ
 الْإِنْسَانُ مُسْتَمِرّاً فِي إِقْبَالِهِ مَا لَمْ يَعْثُرْ فَإِذَا عَثَرَ لَجَّ بِهِ^(٢) الْعِثَارُ وَإِنْ مَشَى فِي
 جَدَدٍ^(٣) الْأَرْضِ. وَحَذَرِي عَلَى السَّلْحَفَةِ خَيْرِ الْأَصْدِقَاءِ الَّتِي خِلْتُهَا لَيْسَتْ
 لِلْمَجَازَةِ وَلَا لِلْإِثْمَاسِ مَكَافَاةٍ وَلَكِنَّهَا خِلَّةُ الْكَرَمِ وَالشَّرَفِ، خِلَّةٌ هِيَ أَفْضَلُ
 مِنْ خِلَّةِ الْوَالِدِ لَوَلَدِهِ، خِلَّةٌ لَا يُزِيلُهَا إِلَّا الْمَوْتُ، وَيُحْ^(٤) لِهَذَا الْجَسَدِ
 الْمَوْكَلِ بِهِ الْبَلَاءُ الَّذِي لَا يَزَالُ فِي تَصَرُّفٍ وَتَقَلُّبٍ وَلَا يَدُومُ لَهُ شَيْءٌ وَلَا
 يَلْبَثُ مَعَهُ أَمْرٌ كَمَا لَا يَدُومُ لِلطَّالِعِ عَلَيَّ النُّجُومُ طُلُوعٌ وَلَا لِلْأَفَلَةِ مِنْهَا أُفُولٌ
 لَكِنْ لَا يَزَالُ الطَّالِعُ مِنْهَا آفِلاً وَالْأَفَلُ طَالِعاً، وَكَمَا تَكُونُ آلَامُ الْكُلُومِ
 وَانْتِقَاضُ الْجِرَاحَاتِ كَذَلِكَ مَنْ قَرَحَتْ كُلُّومُهُ يَفْقِدُ إِخْوَانَهُ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِ بِهِمْ.

قَالَ الظَّبْيُ وَالْغَرَابُ لِلْجُرَذِ: إِنَّ حَذَرَنَا وَحَذَرَكَ وَكَلَامَكَ وَإِنْ كَانَ بَلِيغاً
 فَإِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنِ السَّلْحَفَةِ شَيْئاً، وَإِنَّهُ كَمَا يُقَالُ: إِنَّمَا يُخْتَبَرُ النَّاسُ عِنْدَ الْبَلَاءِ
 وَذُو الْأَمَانَةِ عِنْدَ الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ، وَالْأَهْلُ وَالْوَلَدُ عِنْدَ الْفَاقَةِ، وَالْإِخْوَانُ عِنْدَ
 التَّوَائِبِ. قَالَ الْجُرَذُ: أَرَى مِنَ الْحِيلَةِ أَنْ تَذْهَبَ أَيُّهَا الظَّبْيُ فَتَقَعَ بِمَنْظَرٍ مِنْ
 الْقَانِصِ كَأَنَّكَ جَرِيحٌ وَيَقَعَ الْغَرَابُ عَلَيْكَ كَأَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْكَ وَأَسْعَى أَنَا فَأَكُونُ

(١) العقبة: الطريق الصعبة في الجبل.

(٢) لج به: تهادى.

(٣) الجدّد: الأرض المتسوية.

(٤) ويح: كلمة رحمة.

قريباً من القانص مراقباً له لعله أن يرمى ما معه من الآلة ويدع السلخفاة ويقصده طامعاً فيك راجياً تحصيلك، فإذا دنا منك ففر عنه رؤيداً بحيث لا ينقطع طمعه منك وأمكنه^(١) من أخذك مرة حتى يبعد عنا، وأنح منه هذا النحور ما استطعت فإني أرجو ألا ينصرف إلا وقد قطعت الحبايل عن السلخفاة وأنجو بها.

ففعّل الظبي والغراب ما أمرهما به الجرذ وتبعهما القانص فاستجره^(٢) الظبي حتى أبعدته عن الجرذ والسلخفاة والجرذ مقيبلاً على قطع الجبال حتى قطعها ونجا بالسلخفاة وعاد القانص مجهوداً لاغياً^(٣) فوجد جبالته مقطعة؛ ففكر في أمره مع الظبي المتطلع فظن أنه حولط في عقله^(٤) وفكر في أمر الظبي والغراب الذي كان كأنه يأكل منه وتقريض جبالته. فاستوحش من الأرض وقال هذه أرض جن أو سحرة. فرجع مولياً لا يلتمس شيئاً ولا يلتفت إليه. واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلخفاة إلى عريشهم آمنين كأحسن ما كانوا عليه.

فإذا كان هذا الخلق مع صغره وضعفه قد قدر على التخلص من مرابط الهلكة مرة بعد أخرى بمودته وخلوصها وثبات قلبه عليها واستمتاع بعضه ببعض. فالإنسان الذي قد أعطي العقل والفهم، وألهم الخير والشر، ومُنح التمييز والمعرفة أولى وأخرى بالتواصل والتعاقد.

فهذا مثل إخوان الصفاء وأتلافهم في الصحبة.

(١) أمكنه: مكّنه.

(٢) استجره: استدرجه.

(٣) لاغياً: تعباً.

(٤) أي اختل عقله.